اسباب الاحتلال البريطاني

(٦)

تقدم في الجزء الماضي ان شريف باشا رضي بتأليف الوزارة وكان قبلاً يكره الاستعانة بالاوربيين لكنهُ رأى الآن ان لا بدَّ للحكومة الخديوية من الابقاء على المراقبين الاوربيين لان المراقبة افادت في توطيد دعائم المالية فاجابهُ الخديوي الى ذلك وظهر كان وزارة شريف باشا قبضت على ازمة الحكومة ولكن عرابي كان قد نشر منشوراً في ٩ سبتمبر اكَّد فيهِ لتناصل الدول انهُ هو ورفاقهُ يحمون مصالح كل رعايا الدول المتحابة ووقَّعهُ هكذا احمد عرابي نائب الجيش المصري كأن كل السلطة في يدهِ ويد الجيش . ومن رأي السر تشارلس كوكسن والسر ادورد ملت ان عرابي ورفاقهُ كانوا يتظاهرون بالقوة خوفاً من بطش الخديوي بهم وان كل كلمة كانوا يقولونها وكل فعل كانوا يفعلونهُ يدل على انهم كانوا خائفين من ان يؤخذوا على غرة ويُنتقم منهم . وقد صرَّح عرابي بذلك في منشور بعث بهِ الى وكلاء الدول وقال بعد ذلك انهُ سمع ان الحكومة صنعت ثلاثة اقفاص من الحديد لكي تضعهُ فيها هو ورفاقهُ وتغرقهم في النيل . ومن كان هذا اعتقادهُ لا يستغرب منهُ ان يستميل في الدفاع عن نفسهِ . وكان الواجب ان يعامل هو ورفاقهُ بالصرامة او بالرأفة ولكن على اسلوب يقنعهم ان لا غدر في معاملتهم ولا عداء . وكان الواجب على الخديوي ان يعلم ان اقل اشارة يظهر منها انهُ قد يتدبر بهم تحملهم على الاعتقاد انهُ عازم على ذلك فعلاً لان الناس لم يكونوا قد نسوا ما حلَّ باسمعيل باشا المفتش وغيرهِ من الذين أُخذوا غدراً . وطالما حذَّر رياض باشا الخديوي من ان يقول كلمة او يشير اشارة تثير الظنون في نفوس اولئك الرجال . ولا يحتمل ان الخديوي كان يقصد الغدر بهم ولكن لا يبعد انهُ لو استطاع لجعلهم يرون غيظهُ منهم بطريقة من الطرق ولو كان قد عفا عنهم . وقد اشار عرابي في منشورهِ الى دسائس يوسف باشا كامل وابرهيم اغا توتنجي الخديوي وقال انهما يغدران بذور الشقاق ولذلك فالسبب الاكبر للتمرُّد الذي حدث في ٩ سبتمبر هو الخوف ولو كانت لهُ اسباب أُخرى في الامال الوطنية والدسائس الخارجيَّة

هذا هو التمرُّد الثالث وقد نال بهِ الجيش اكثر مما نال في الاول فقوي ساعدهُ . فالتمرد الاول انتهى باسقاط نوبار باشا ولم يكن الخديوي يريد بقاءهُ . والثاني انتهى باسقاط عثمان

باشا عزمي ناظر الحربية والثالث باجابة الجيش الى مطالبه التي طلبها بحد الحسام ولم يكتفِ باقل من تغيير الوزارة كلها فزالت هيبة الحكومة من صدور الجيش وفقد الخديوي كل سلطة وصار بقاء الوزارة متوقفاً على رغبة المتمردين

ورأى الباب العالي حينئذٍ انهُ قد حانت الفرصة لتعزيز سيادته على القطر المصري وكان عرابي قد بعث اليه عريضة يقول فيها ان مصر وقعت في يد الاجانب واذا لم تتداركها الدولة العلية حلَّ بها ما حلَّ بتونس . وشاع حينئذٍ ان المراد اعطاء مصر حكومة نيابيَّة والسلطان يكره ذلك ثم شاع ان في النية انشاء مملكة عربية تضم القطر المصري والقطر الشامي ولذلك خطر للباب العالي ان يرسل جانباً من جيشه الى القطر المصري وأُعدت المعدَّات في اوائل سبتمبر سنة ١٨٨١ لارسال هذا الجيش وكانت فرنسا تكره ذلك وانكلترا لم تكن تودُّهُ الاَّ اذا اشتدَّت الحاجة اليه ولكنها لم تزل مانعاً من ارسال قائد عثماني الى مصر ليساعد الخديوي اذا وافقت فرنسا اما فرنسا فلم توافق مخافة ان يؤول ذلك الى ارسال جيش عثماني الى القطر المصري فاضطرت انكلترا ان توافقها واوعزت الى سفيرها لورد دفرن ان يثني السلطان بالعدول عن هذا الرأي . ولكن كان لا بدَّ من وسيلة لتقوية سلطة الخديوي فارتأى جلالة السلطان ان يرسل علي فؤاد بك وعلي نظامي باشا لكي يقدما الى الخديوي سلام جلالته ويساعداهُ في الرأي لكي لا تبطل مصالح الدولة العلية في مصر والحجاز فأرسلا ووصلا الاسكندرية في ٦ اكتوبر واستاءت الحكومة الفرنسوية من ذلك وأمر السر ادورد مالت والمسيو مينكلتس ان يقابلا المعتمدين العثمانيين بالاكرام ولكن يمنعا كل مداخلة منهما في شؤون مصر الداخلية ورأت دولتاها ان لا بدَّ من ارسال مركبين حربيين الى الاسكندرية تفهيماً للافكار فكان لذلك ضجة كبيرة في الاستانة وقيل فيها ان الغرض من ارسالها اثارة الفتن في كل البلاد العربيَّة . ولم يكن الخديوي يعلم الغرض من ارسال المعتمدين العثمانيين وقال شريف باشا ان خير الامور لتقصير مدة اقامتهما في القطر المصري وعرابي نفسهُ لم يكن يودُّ ان تتداخل تركيا في شؤون مصر الداخلية لاسيما وان الغرض الاول من الثورة العسكرية هو التخلص من الضباط الاتراك ولذلك قال انهُ يرضخ للاوامر ويقوم بالايبه الى السويس

واستعرض علي نظامي باشا الجيش في العاصمة وخاطب الضباط قائلاً ان الخديوي هو نائب السلطان ولذلك فمن يعصيه يعصي السلطان والحت فرنسا وانكلترا برجوع هذين المعتمدين من القطر المصري وطلب الباب العالي ان يبرح المركبان الحربيان ايضاً ثغر

الاسكندرية ووقع الخلاف هل يبرح المركبان اولاً او العثمانيان اولاً وخاطب موزورس باشا سفير تركيا لورد غرانفل في ذلك فقال لهُ لورد غرانفل ان المركب الانكليزي برح مالطة ولا يصل الى الاسكندرية قبل ١٩ اكتوبر وهو يحسب ان العثمانيين يبرحان الاسكندرية قبل ذلك وأمر لورد دفرن ان يخبر السلطان ان المركبين يبرحان الاسكندرية في اليوم الذي يبرحها فيهِ العثمانيان

قال لورد كرومر انهُ اسهب في ذكر هذه الحادثة لانها تدل على حالة المسألة المصرية من حيث المداخلة الخارجيَّة فان مداخلة تركيا في شؤون مصر لم تكن تسلم من الاعتراض وكذلك مداخلة انكلترا وفرنسا لم تكن تسلم من الاعتراض وكانت انكلترا ميالة الى التسليم بمداخلة تركيا ولكن اتفاقها مع فرنسا منعها من ذلك وكانت الحكومتان الانكليزية والفرنسوية تودان ان تعملا بالاتفاق التام الاَّ ان فرنسا كانت تكره ان يزيد نفوذ تركيا في مصر وتقاوم ذلك بكل قوتها وتقول انهُ اذا كان لا بد من ارسال جيش الى مصر فليكن انكليزيًّا وفرنسويًّا واما انكلترا فكانت تقول انهُ اذا كان لا بدَّ من ارسال جيش الى مصر فهي تفضل ان يكون عثمانيًّا على ان يكون انكليزيًّا وفرنسويًّا ثم اضطرَّت ان تجاري فرنسا على رغبتها. وقد ذكر لورد كرومر ذلك آسفًا ولام حكومتهُ لانها لم تنظر الى ارسال المندوبين العثمانيين بعين الرضى تمهيدًا لتعزيز سلطة الجيش العثماني في حفظ النظام اذا دعت الحاجة اليهِ . وقال ان عمل الحكومة الانكليزية اضعف عزيمة السلطان واقنعهُ انها معادية لكل مداخلة عثمانية ولذلك صارت المداخلة الانكليزية فرضًا لازمًا عليها

هذا ونحن نلخص هذه السطور من كتاب لورد كرومر بعد اعادة القانون الاساسي الى البلاد العثمانية ويقيننا انهُ لو كان القانون الاساسي جاريًا حينئذٍ والحكومة العثمانية في يد مجلس نوابها جارية عجرى العدل كما ينتظر منها لطفئت الثورة العرابية في طرفة عين او لما اعترضت فرنسا اقل اعتراض على اخمادها بجيش عثماني او (وهو الارجح) لما حدثت ثورة ولكان العثمانيون والمصريون اخوة في السرَّاء والضراء وهذا الذي نرجوان يتم في القريب العاجل

وشواهد لورد كرومر وادلتهُ مقنعة على ان فرنسا هي التي اوجبت على الانكليز احتلال مصر وان الانكليز كانوا يفضلون ان تحتل البلاد جنود عثمانية ان كان لا بد من احتلالها بقوة عسكرية وهو مع ذلك يلوم الحكومة الانكليزية لانها انقادت لرأي فرنسا

ثم عاد الى سياق الحديث فقال ان السر ادورد ملت قال بُعيد ٩ سبتمبر ان الخديوي لم

يعد بشق بضباط جيشه ومن ثم تُفهم الخطة التي جرى عليها بعد ذلك لانهُ صار يقول ان البلاد لا تستريح ما لم تكسر شوكة الجيش فزد النفور بينهُ وبين الجيش والحزب الوطني

اما شريف باشا فرأى مداواة العلة بالسياسة وذلك بفصل الحزب الوطني عن الجيش وقال للسر ادورد ملت ان في عزمهِ جمع مجلس الاعيان وجعلهُ نائباً حقيقياً عن الامة فينزع من الجيش السلطة التي حازها اخيراً ويصير الاعيان قوة بناية في البلاد يعتمد عليها الخديوي وحكومتهُ في مقاومة مطالب الجيش . وصدر امر خدوي في ٨ اكتوبر بجمع مجلس الاعيان في ٢٣ دسمبر . واختصاصات هذا المجلس معينة في قانون اسمميل باشا الذي صدر سنة ١٨٦٦ وفي عزم عرابي في ان يوسع اختصاص هذا المجلس لكن شريف باشا لم يجبهُ الى طلبهِ فرضي وترك الامر في يد شريف باشا . الاَّ ان الاعيان انفسهم كانوا يريدون ان يوسّع اختصاصهم . والظاهر مما كتبهُ السر اكلند كولفن في هذا الموضوع انهُ هو لم يكن مخالفاً لذلك بل كان يحسب ان توسيع اختصاص مجلس الاعيان يعود بالفائدة على البلاد وقال انهُ كان عازماً ان ينصح لشريف باشا ليفعل ذلك

اما عرابي فكان قد صار صاحب الامر والنهي ولما أُمر بالذهاب مع الايبو خرج من العاصمة كأنهُ ملك من الملوك وتوبل باحتفال عظيم في محطة سكة الحديد فخطب في الجيش وقال ما معناهُ — نرى امام مصر الآن عصراً جديداً من فضل القائمين بالاعمال الذين يجب ان نشق بهم تمام الثقة وقد جاءت ساعة النجاح والفلاح فلنعترف بالفضل لاعضاء الوزارة الحاضرة ولا سيما محمود باشا سامي ناظر الجهادية وارجو ان تفهموا مقدار الفخر المحفوظ لجيش منظم متحد يسعى الى غاية واحدة وهي مصلحة وطنهِ فتي ايديكم قوة واذا كنتم متحدين فلا شيء يقوى عليكم

ولما وصل الى الزقازيق وجد الف نفس في انتظاره جُمعوا للاحتفال بهِ فقابلوهُ بالتهليل والابتهاج فخطب فيهم حاثاً على الاصلاح وقائلاً على الحكومة لاستخدامها الاوربيين في مصالحها وقال ان في العاصمة ثلاثة الايات مستعدة لعمل ما يأمرها بهِ

الاَّ ان عرابي لم يكن يبدي هذا العداء للاوربيين في احاديثهِ السرية كما كان يبديهِ في خطبهِ العلنية فقد قابل السر اكلند كولفن في اول نوفمبر هو وعلي بك فهمي وطلبة بك عصمت فوصف عصر المماليك وقال ان العائلة الخديوية مثل المماليك في ظلم الوطنيين من اولاد العرب وان المصريين لا يأمنون على ارواحهم واموالهم فيسجنون وينفون ويختقون ويرمون في النيل وتنهب اموالهم والعبد المعتوق اكثر حرية منهم واجهل رجل من الاتراك يفضل

على افضل رجل من المصريين وذكر حادثة اسمعيل باشا المفتش ثم جعل يبيّن كيف ان الناس كلهم من اصل واحد وانهم كلهم متساوون في الحقوق واسهب في الكلام وكان كلامهُ بسيطاً لا كلفة فيهِ ولا تصنّع دليلاً على انهُ محض اعتقادهِ . ثم قال انهُ في اول فبراير انقضت سلطة الشراكسة في مصر وفي ٩ سبتمبر قام مقامها عصر العدل والقانون وهو والجيش معتمدون على العدل والقانون . ونفى ما يقال من انهُ يودّ التخلص من الاوربيين سواء كانوا تزلاء او موظفين وقال انهُ لا بدّ منهم لتعليم الشعب وانهُ هو ورفقاءهُ لم يدخلوا مدرسة ولكنهم تعلموا وتفقهوا من معاشرة الاوربيين وهو والجيش يشعرون بحاجتهم اليهم ولا يعترضون على استخدامهم في وظائف الحكومة بل ان كانت وظائف الحكومة تستدعي ان يزاد عددهم فيها فاهلاً وسهلاً بهم

وقال السر اكلند كولفن انهُ رأى في حديث عرابي هذا انهُ مخلص محب للسلامة وهو شديد العزيمة ولكن رفيقيهِ اقدر منهُ على العمل ولو كان هو اقدر منهما على القول وهما يمسكان ثائرهُ اذا بلغت منهُ الحدة مبلغاً يخشى منهُ

وحدث في تلك الاثناء حوادث كثيرة دلّت على ان الجيش لم يعد يطيع اوامر رؤسائهِ وهاجت الافكار بما كان يكتب في الجرائد المحلية من مقالات التهييج والطعن على الاوربيين وكان لكلامها وقع في النفوس لان بعض ما كانت تقولهُ صحيح لا ريب فيهِ

وختمت سنة ١٨٨١ والخديوي مستاء مما لقيهُ من الاهانة في ساحة عابدين يوم احاط بهِ الجيش بسلاحهِ ومنتظر فرصة لاسترجاع سطوتهِ وشريف باشا يحاول تسكين الخواطر بسياستهِ ولكنهُ عاجز عن كبح عناصر الاضطراب بعد اطلاق عنانها . وعرابي المتسلط الحقيقي في البلاد والجيش يحمي ظهرهُ فجُعل ناظراً للحربية في اوائل سنة ١٨٨٢ لكي يكون مع الحكومة لا عليها . والناس عموماً متذمرون من الحالة الحاضرة ولكن الاتفاق لم يكن تاماً بين الحزب الوطني والجيش . والجرائد المحلية تثير العواطف ضد الاوربيين . وزاد الضباط رفعةً في عيون الشعب حتى حسبوا ان الحول والطول في يدهم واختل نظام الجيش رويداً رويداً . واحدث اثنان من رجالهِ شغباً في اوائل نوفمبر فقبض البوليس عليهما فاتى رفاقهما واقتدوهما من قبضة الحكومة عنوةً . ثم عزمت الحكومة ان تثير امير الاي الطبجية المقيم في القاهرة فلم يقبل رجالهُ بذلك وقالوا انهم لا يطيعون اوامر امير الاي آخر غيرهُ . وقد تغلّبت الحكومة عليهم ولكن بعد ان اعطتهم مطالب اخرى . واظهر الجنود الذين سيقوا السويس شيئاً من التمرّد . وهذه الامور وامثالها دلّت على انهُ لم تبقَ قوة في مصر يمكن الاعتماد عليها (ستأتي البقية)